تأثير المملكتين

الزنكية والأيوبية في تقدم العلوم

الدكتور محمد زهير البابا

يقول الأستاذ المرحوم محمد كرد علي في كتابه (خطط الشام):

«إن وجود السلاجقة في بلاد الشام كان خيرٌ لم تُعرف حكمتُه إلا بعد حين، وهو قيام دولةٍ فتيةٍ لها جيشٌ جرّار، استطاع الوقوفَ بشجاعة أمام جيوشِ الفرنج، والتي بدأت تنسابُ متلاحقةً من أوربا، عبر آسيا الصغرى، بقصد انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين».

إن أول حملة صليبية بدأت أواخر عام ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦م)، وذلك حينما اجتمعت في القسطنطينية أربعة جيوشٍ، جاءت من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. ثم اتجهت إلى شمال سوريا فاستولت على الرَها وإنطاكية والمعرَّة، وتابعت سيرها إلى القدس، فاستولت عليها عام (٤٩٢ هـ /١٠٩٩ م).

بدأ الصليبيون بعد ذلك بالتوغل في بلاد الشام، ناشرين الخراب والقتل، يحرقون المنازل والحقول وينهبون الأموال والأرزاق. وبالرغم من شعور أمراء المسلمين بالخطر الداهم، إلا أن قوى السلاجقة الأتراك والفاطميين لم تتوحد لصد المعتدين.

لقد كانت النجدات تأتي للصليبيين بحراً على مراكب يملكها أهلُ جنوة وبيزا. أما أمراءُ وملوك الشام فكانت المؤن والنجدات تأتيهم من مصر والعراق والجزيرة وديار بكر. ولما حاول الصليبيون إلقاء الحصار على كل

من حلب ودمشق هب عماد الدين زنكي أميرُ الموصل لنجدة أهل الشام. فدخل حلب (٥٢٢ هـ) ورتب أمورها والدفاع عنها، ثم توجه إلى حماه فملكها أيضاً. ولما عصت عليه حمص رحل عنها وعاد إلى الموصل.

وفي عام ٥٢٤ هـ جمع عماد الدين عساكره وذهب لنجدة حلب ودفع الفرنج عنها، ثم غزت قواته اللاذقية (٥٣٠) واستعاد مدينة الرها (٥٣٩) ولكنه قُتل بالقرب من قلعة جعبر (٥٤١هـ).

كان نور الدين زنكي موجوداً في قلعة جعبر يوم مقتل أبيه عماد الدين، فأخذ خاتمه وتوجه إلى حلب فملكها، كما سار أخوه سيف الدين غازي إلى الموصل فملكها أيضاً.

بدأت الحملة الصَليبية الثانية في أوائل حكم نور الدين، وكانت تضم محاربين فرنسيين وألمان وانكليز وطليان. تجمعوا في القسطنطينية، وكان عددُهم يتراوح بين السبعمائة ألف والمليون، بين فارس وراجل.

وفي عام ٥٤٣ هـ وصلت مراكبُهم إلى صور وعكا، وكانت تحملُ جيشاً أكثرنظاماً من جيش الحملة الأولى، ولكن قسماً منه هلك في الطريق، وقسمٌ عاد إلى بلاده بعد زيارة القدس. أما الباقي فقد توجه لفتح دمشق بقيادة كونراد الألماني، ولويس السابع الفرنسي، وبودوان ملك القدس.

أخذت الحملة طريقها إلى دمشق في منتصف عام ٥٤٣ هـ، وضربت خيامها في ناحية المزة، فنشَب القتالُ بينهم وبين أهلها، وكان الأتابك معين الدين أنر يدير الدفاع عن دمشق. لقد استشهد من المسلمين منذ اليوم الأول للقتال عددٌ كبير، لذلك خاف معين الدين أن تدور عليه الدائرة، فاستنجد بسيف الدين غازي صاحب الموصل. ولما وصلت إليه النجدات استعاد المسلمون عزيمتهم فقاتلوا الصليبيين في البساتين وبين الأشجار، مما اضطر الصليبيين للخروج إلى العراء، فشد عليهم الفرسان االتركمان ورموهم

بالـبـال. وبـينما هم في هذا المأزق الحـرج جاءت الأخبار باقـتـراب قوات نور الدين محمود من دمشق، فعرض الصليبيون على معين الدين أن يتراجعوا عن دمشق لقاء مبلغ كبير يدفعه لهم.

أقام نور الـدين معسكـره في حمص، واكتـفى بمراقبـة سير المعـركة، وهكذا تم انسحاب الصليبيين عن دمشق وعادوا إلى القدسُ منهوكي القوى. وفي عام ٥٤٥ هـ توفي معين الديـن، ولما كان وصياً عـلى مجيـر الدين آبَق، حفـيد تاج الـدين بوري لذلـك تولى الأخيـر حكـم دمشق. وفي ذلك العام توفي أيـضاً سـيف الدين غـازي أميـر الموصل، وهو الأخ الثـاني لنـور الدين، فأسرع قطـب الدين مـودود، وهو الأخ الأصغـر لنوري الـدين، فوضـع يده على الإمـارة. وبما أن نور الـدين كـان أحقَّ مـنه بالإمـارة لذلـك أسـرع إلى الموصل، واتفق مع أخـيه على أن تكون الموصل والجزيرة لـقطب الدين، على أن يخطـب في بلاده لنـور الدين، وبهـذه الصورة ضُـمت الموصل والجـزيرة لدولة حلب.

وفي آواخر ذلك العام توغلت قواتٌ صليبية، جاءت من بيت المقدس، في أرض حوران، فأسرع نور الدين للدفاع عنها، وطلب من مجد الدين آبق أن يمدّه بالجنود فلم يفـعل. ولكن حيـنما وصلـت قوات نور الدين لمشارف الشـام سارع مـجيرُ الـدين ورجالُه لاستقبـاله. وعـرضوا عليـه الدخـول في طاعته، على أن يظلوا في حكم البلد. فوافقهم على ذلك، وأكرم رجال العلم وأحسن إلى الفقراء.

ولكن بعـد انسحاب قـوات نور الدين من أطـراف دمشق عاد أميـرُها إلى الاتـصـال بالفـرنج والاستـنـجاد بـهـم. ودفـع لهم الأمـوال وسـمح لـهـم بدخول البلـد بحجة البحث عن أسـراهم. واستمر ذلك حـتى عام ٥٤٩ هـ، وعندئذ انفـجر غضـب الشعـب على أميره مجـد الدين وحُـصر في القـلعة مع

بعض أعوانه. وأخذ وجهاءُ دمشق يبعثون برسائلهم إلى نور الدين طالبين معونته. فاكتفى بابلاغ أمير دمشق ما يقول له أنصاره، وأكد استعداده للصفح عنه إذا هو سلّم إليه البلد. ثم وجه أمره إلى وزيره أسد الدين شيركوه بأن يتوجّه إلى دمشق، فدخلها من الباب الشرقي أولاً، ثم دخل نور الدين من باب توما، فاستقبلهما الدمشقيون بالحفاوة والتكريم.

وبعد سقوط دمشق بيد نور الدين أصبح حكمه يمتد من الموصل والجزيرة والرَها شمالاً، إلى حوران وعسقلان والقدس جنوباً،ولم يبق أمام تحقيق هدفه، وهو فتح بيت المقدس، سوى الاستيلاء على مصر.

وفي عام ٥٥٢ هـ توالت الزلازل على بلاد الشام، فبدأت موجتُها الأولى من حلب أواخر جمادى الأولى، ثم انتقلت إلى حماه وكفر طاب وأفامية وشيزر. وفي أوائل رجب دهمت دمشقَ، فتصدعت منها جدرانُ الجامع الأموي، وتناثرت فصوص الفسيفساء التي كانت تزينّها. وكانت مدينةُ حماة وقلعة شيزر أكثر تلك الأماكن تضرراً.

لقد انهدم حصنُ شيزر على أميرها تاج الدولة، أبي العساكر بن منقذ ومن معه، ولم ينجُ منهم إلا اليسير، وكان من بينهم الأمير أسامة بن منقذ المشهور. وبقيت هذه الزلازل تهدد بلاد الشام خلال عامين، وامتدت من قبرص وحلب شمالاً إلى القدس جنوباً.

لم يكفَّ نورُ الدين شهراً عن الخروج للغزو. وكانت أعدادُ جنوده تتزايد يوماً بعد يوم. وكان جميعُ رجاله راغبين في الحرب، نظراً لما فيها من ثواب ومغانم. وقد أنهكَ هذا النشاطُ المُتصلُ بدنَ نور الدين وسار به نحو المشيب، وهو لم يتجاوز الأربعين إلا قليلاً. لقد كان زاهداً بالنعيم، ولا يصيب من الطعام إلا ما يكفيه، حريصاً على الصلاة وقيام الليل.لم يتزوج إلا امرأة واحدة، وهي عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين، ولم

يسكن القصور، ولم يقتني الجواري والعبيد. كان حنفي المذهب، يُحب العلماء والفقراء ويكرمهم، ويعقد مجالسَ العدل ويتولاها أحياناً بنفسه. ولما وصل القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي إلى دمشق، جعله نورُ الدين قاضي القضاة. ويقولُ ابن الأثير«إن نور الدين كان أولَ من ابتنى داراً للعدل في دمشق، وكان يجلس في الأسبوع مرتين أو أكثر. وكان القاضي كمال الدين يُنصف كل مَن استعداه على جميع الأمراء، إلا أسدَ الدين شيركوه فما كان يهجمُ عليه. فلما ابتنى نورُ الدين دارَ العدل تقدم أسدُ الدين إلى نوّابه أن لا يَدعَوا لأحدٍ عنده ظلامة، وإن كانت عظيمة،فإنَّ زوالَ مالهِ عنده أحبُ إليه من أن يراهُ نور الدين بعين ظالم، أو يُوقفه مع خصمٍ من العامة، ففعلوا ذلك. فلما جلس نورُ الدين بدار العدل مدةً متطاولة، ولم يرَ أحداً يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك فأعلمه بصورة الحال، فسجد نورُ الدين شكراً لله، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابَنا يُنصِفون من أنفسهم».

اشتهر في عهد نور الدين شابٌ سمع الحديثَ الشريفَ ورحل من أجله إلى عِدة أقطارٍ عربية و إسلامية، وهو أبو القاسم علي بنِ الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي، والملقب بابن عساكر. أتقن الحديث رواية ودراية، وتصدر دارَ السنة ولّما يبلُغ الخامسة والثلاثين. فقرَّبه نورُ الدين الزنكي وبنى له دارَ السُّنة، وصار يحضرُ مجالس الحديث عنده. وهو صاحب أكبر تاريخ لمدينة دمشق، ألفه على مراحل، وتولج ابنه القاسم تذييله وتبييضه.

كان نور الدين قد أسر بنفسه أحدَ ملوك الفرنج، فاستشار الأمراءَ فيه هل يقتُلَه أم يقبل فيه الفدية. فلما اختلفوا في الأمر حسن في رأيه إطلاقَه وأخذَ الفداء منه. ثم بنى من ذلك المال المارستانَ الكبير بدمشق سنة (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م). واشترط أن تكون الخدماتُ الصحية فيه

مقصورةً على الفقراء والمساكين. أما الأدوية التي يَعزّ وجودُها في الأسواق فلا يُمنع منها طالبها ولو كان من الأغنياء.

ظل البيمارستان النوري بدمشق عامراً بالمرضى والأطباء حتى عام (١٣١٧هـ /١٨٩٩م). وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين. ثم استولت عليه وزارةُ المعارف وجعلته مدرسة للبنات في أول الأمر، ثم مدرسة للتجارة. وأُغلق بعد ذلك وأُهمل أمره، حتى قامت مديرية الآثار باستلامه وترميمه. وتمّ افتتاحُه بعد ذلك من قبل وزارتي التعليم العالي والثقافة، بتاريخ ٢١ كانون الأول لعام ١٩٧٨م، وتحويلُه لمتحف للعلوم الإسلامية. وكان لي الشرفُ بإلقاء أولَ محاضرة فيه، وعنوانها:

«المدرسة الطبيه الدمشقية في ظل البيمارستان النوري»

ونشرت تلك المحاضرة في العدد (١٢٦) من مجلة المناضل بدمشق.

يقول ابنُ أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

«إن الملك العادل نور الدين لما أنشأ البيمارستان الكبير بدمشق جعل أمر الطب فيه إلى أبي المجد محمد بن أبي الحكم الباهلي الأندلسي (ت ـ ٥٧٠ هـ). وكان أبو المجد يدور على المرضى ويتفقد أحوالَهم، وبين يديه المشارفون والقُوّام لخدمة المرضى ـ فكان جميع ما يكتبه لكل مريض، من المداواة والتدبير، لا يؤخَّر عنه ولا يُتوانى فيه. وبعد فراغ أبي المجد من ذلك، وبعد طلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي يتوسط البيمارستان، ويُحضر كُتبَ الاشتغال».

لقد أوقف نور الدين على هذا البيمارستان جملة من الكتب الطبية، كانت تحفظ في الخرستانين اللذين في صدر الإيوان. وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون ويقعُدون بين يديه. ثم تجري المباحثُ الطبية،

ويقرىء التلاميذ، ولا يزالُ في الاشتغال والمباحثة ونظر الكتب مقدار ثلاث ساعات).

يتبين مما سبق أن البيمارستان النوري كان منذ إنشائه مقراً لتقديم الخدمات الصحية المجانية للفقراء، ومدرسةً لتعليم الطب. وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أسماءَ جملةٍ من الأطباء الذين عملوا فيه، ومنه يتبين أنهم كانوا ينتمون لأقطار عربية أو إسلامية مختلفة، كما يتبين لنا أيضاً أن بعضهم كان يقوم بعمل آخر غير مهنة الطب. وكان الأطباء ينتقلون من قطر عربي لآخر بسهولة ويسر. وكان من أشهرهم:

مهذب الدين النقاش: ولد ونشأ ببغداد، وفيها تعلم واشتغل بصناعة الطب. توجه إلى مصر وأقام بالقاهرة مدة ثم رجع إلى دمشق حيث خدم الملك العادل نور الدين في البيمارستان الكبير. وكان له مجلسٌ يضم المشتغلين عليه من مسلمين ومسيحيين وموسويين.توفي بدمشق عام ٥٧٤ هـ

مؤيد الدين أبو الفضل الحارثي، والمعروف بالمهندس: كانت مهنته النجارة قبل أن يتعلم الطب. ولد ونشأ في دمشق، وفيها مارس مهنته فقام بصنع أبواب البيمارستان الكبير. اشتغل بعلم النجوم وعمل الزيج. قرأ صناعة الطب على أبي المجد بن أبي الحكم. وقام بحل كتاب اقليدس، وشرع في قراءة وحل كتاب المجسطي لبطليموس. نسخ بخط يده الكتب الستة عشر المترجمة لجالينوس. وكان يتقاضى راتباً لقاء إشرافه على صيانة وتصليح ساعات الجامع الأموي. سافر إلى مصر، وسمع الحديث بالاسكندرية. ثم عاد إلى دمشق حيث توفي (٥٩٩ هـ) وهو في السبعين من عمره.

موفق الدين السلمي: كان مدرساً للفقه الشافعي في المدرسة الأمينية، والتي أنشأها أمين الدولة كمشتكين، وهي لما تزل قائمة حتى الآن.

عمل طبيباً في البيمارستان النوري بدمشق، ونال حظوة عند نور الدين. وكان له مجلسٌ خاص يتداول فيه أمورَ الطب مع أطباء عصره. توفي بدمشق(٦٠٤ هـ) ودفن بجبل قاسيون.

رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (٥٣٤ - ٦٣١هـ): وهو أحدُ أفراد عائلة اشتهرت بممارسة الطب. كان والده كحالاً من بلدة الرُحبية في جزيرة ابن عُمر. سافر إلى بغداد حيث اشتغل بصناعة الطب. ثم رحل إلى مصر طلباً للرزق، ولكن لم يلبث أن عاد إلى دمشق واستقر فيها (٥٥٥) هـ زمن الملك العادل نور الدين، وعمل في بيمارستانه. ويقول رضي الدين عن نفسه أنه لم يُقرىء في سائر عمره من أهل الذمة سوى اثنين هما: الحكيم عمران الاسرائيلي، وإبراهيم ابن خلف السامري. وقد نبغ كلاهما، وصار طبيباً فاضلاً.

رضوان الساعاتي: واسمه فخر الدين رضوان بن محمد علي بن رستم. كان خراساني الأصل، درس الطب في مجلس رضي الدين الرحبي بدمشق. برع في علم الهندسة والميكانيك، وخاصة في تركيب وتصليح الساعات. وهو الذي قام بصنع الساعات التي كانت تُزيّن باب الجامع الأموي بدمشق زمن نور الدين زنكي. توفي بدمشق (٦٢٠ هـ) .

من آثاره رسالةٌ في علم الساعات، ترجمت إلى الألمانية وطبعت في مدينة هالة ١٩١٥. حقق هذه الرسالة السيد محمد أحمد دهمان، وطبعت في دمشق ١٩٨١. كما أن معهد التراث العلمي العربي بحلب نشرها ضمن بحثٍ للعالم دونالد هيل باللغة الانكليزية، عن علم الساعات عند العرب، وذلك في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ١٩٧٧ م.

انتهاء الحكم الفاطمي في مصر:

في عام ٥٤٩ هـ جاءت الأخبار بمقتل الخليفة الظافر في مصر، وأنه لم

يبق من أسرته إلا صبي صغير ولّوه ولقّبوه بالفائز. فكتب الخليفة المقتفي العباسي عهداً لنور الدين زنكي بالولاية على مصر وبلاد الشام. فأسرع نور الدين إلى انتزاع مدينة دمشق من يد صاحبها نور الدين أرتق، ثم استدعى نجم الدين أيوب، الذي كان حاكماً لمدينة بعلبك ، فأقطعه اقطاعاً حسناً وأكرمه من أجل أخيه أسد الدين شيركوه. كما قرّب طوران شاه وأخاه صلاح الدين، ولدا نجم الدين، وجعلهما من خواصه.

وفي عام ٥٦٢ هـ أقبل الفرنج في جحافل كبيرة إلى مصر، بدعوةٍ من الوزير شاور، بحجة الدفاع عنها. فأرسل نور الدين وزيره أسد الدين شيرْكوه إلى مصر، فقاتلهم وظفِر بهم. ثم اتجه إلى الاسكندرية ففتحها وجبى أموالها، واستناب عليها ابنَ أخيه صلاح الدين، ثم ذهب إلى صعيد مصر فملَكَه ونظمّ أموره.

عاد الصليبيون بعد ذلك فحاصروا الاسكندرية مدّة ثلاثة أشهر، فسار إليهم أسدُ الدين وطردَهم وتصالح مع شاور ثم عاد إلى الشام ومعه صلاح الدين . وفي عام ٥٦٤ هـ أرسل الخليفةُ الفاطمي العاضد يستغيث بنور الدين، لأن الفرنج استولوا على بلبيس وحاصروا القاهرة. فأمر الوزير شاور أعوانه بإحراق القاهرة لئلا يملكَها الفرنجُ حسب ادعائه، وبقيت النار تشتعلُ فيها مدة أربعة وخمسين يوماً.

ولما شعر شاور بقرب وصول جيش نور الدين طلب من الفرنج أن يعودوا لبلدهم، ووافق على دفع أتاوة كبيرة لهم مقابل ذلك. ثم أخذ يطالب أفراد الشعب المصري بقسوة بالمبالغ التي صرفها. ولم ينقذهم من ذلك البلاء إلا قدوم شيركوه وصلاح الدين على رأس حملة طردت الفرنج من القاهرة، كما تم القبضُ على شاور وإعدامُه.

دخل شيركوه قصر الخلافة بعد انتصاره، فرحب به العاضد، ونصّبه

أميراً للجيوش، ولقبه الملك المنصور. إلا أن شيركوه توفي بعد ذلك بشهرين وخمسة أيام، فاستدعى العاضد صلاح الدين، وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر. وفي عام ٥٦٦ هـ توفي المستنجد العباسي وخلفه ابنه المستضيء. وفيها عزل صلاح الدين قضاة الشيعة وولى قضاةً من السنة .

استتب االأمر لصلاح الدين في مصر بعد ذلك فاستدعى من الشام أباه نجم الدين وإخوتَه، ومنحهم إقطاعات واسعة، وأصبحت الخطبة له بعد نور الدين والخليفة المستضيء العباسي.

كان نور الدين يعتبر صلاح الدين نائباً له في مصر. لذلك أرسل إليه أمراً بقطع الخطبة العلوية، وإقامة الخطبة العباسية. فتردد صلاح الدين في تنفيذ ذلك أول الأمر، خوفاً من حدوث الفتنة. ثم أطاع ونفذ ذلك عام (٥٦٧ هـ / ١١٧١م).

وفي تلك السنة توفي الخليفة العاضد، وكان شاباً كريماً لا يتجاوز عمره الواحد والعشرين سنة، لكنه كان شيعياً متطرفاً. حضر صلاح الدين جنازته وشهد عزاءه وحزِن كثيراً عليه. ثم استحوذ على قصره وأمواله، ونقل أهله إلى دارٍ أفردها لهم، وأجرى عليهم الأرزاقَ، تعويضاً لهم عما فاتهم من الخلافة، وبموته انقضت أيام الدولة الفاطمية.

وفي عام ٥٦٨ هـ توفي الأمير نجم الدين عقب سقوطه عن فرسه، وكان أسنّ من أخيه أسد الدين شيركوه. كما وصل إلى بلاد الشام الفقيه قطب الدين النيسابوري، وكان عالمَ عصره، فسُرّ به نور الدين وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أتى به إلى دمشق حيث قام بالتدريس في الزاوية القريبة من الجامع الأموي. ثم شرع نور الدين بإنشاء مدرسة كبيرة للشافعية، ولكن الأجل أدركه قبل أن يتم ذلك. ويقول المؤرخ أبو شامه في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين): وهي المدرسةُ العادلية الكبيرة التي

عمرها بعد ذلك الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وأتمها قلاوون.

لقد أظهر صلاح الدين، عقب استيلائه على مصر، اهتماماً بشؤونها أكثر من اهتمامه بأمور الحرب الدائرة في بلاد الشام. فكان يكتفي عند الحاجة بالغارات السريعة على الصليبين ليعود بعد ذلك إلى مصر. ولما تأهب نور الدين لفتح بيت المقدس ساءه إحجامُ صلاح الدين عن الخروج إلى الشام، بل فضّل إرسال أخيه طوران شاه إلى بلاد النوبة والسودان لإخضاعهما، ثم استولى بعد ذلك على اليمن، دون استشارة نور الدين أو موافقته. وهذا ما زاد من قلق نور الدين واستيائه، حتى فكر في المسير إلى مصر ليُعاتب صلاح الدين أو يُنذره أو يخرجه منها. وبينما هو على أُهبة الرحيل وافته المنية في أوائل شهر شوال من عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤م.

لم يذكر المؤرخون، عند الكلام عن أسرة نور الدين إلا زوجةً وبنتاً وإبناً واحداً هو إسماعيل. كان في الحادية عشر من عمره، ولُقِّب بالملك الصالح. عاش أولاً في دمشق بصحبة شمس الدين بن المقدّم، ثم انتقل إلى حلب بعد استيلاء صلاح الدين على دمشق. أدركته الوفاة وهو شاب دون العشرين، فانقرض بذلك حكم الزنكيين في بلاد الشام.

كانت العلاقة التي تربط بين نور الدين وصلاح الدين مبنية على الاحترام والحب متبادل. ولكن بعد أن استقر الحكم لصلاح االدين في مصر فقد بدأ الحذر وسوء الظنّ يشوب تلك العلاقة. إلا أن وحدة الهدف جمعت بين هذين البطلين، وهو فتحُ بيت المقدس، وطردُ الغاصبين من مصر وبلاد الشام بصورة نهائية. لذلك اتبع صلاح الدين الخطوات التي سار عليها نور الدين قبل وفاته، وهي الاستيلاء على دمشق، وتطهير الساحل من الأعداء، وهدم قلاعهم.

كان نور الدين رجلاً مؤمناً، امتلأت نفسه بمحبة الإسلام والمسلمين.

وبالرغم من أنه كان من أبرز رجال الحكم والسياسة والدهاء، إلا أنه كان عفيفاً زاهداً بأمور الدنيا. عاش مع عائلته في منزل متواضع يقع في قلعة دمشق. وكان أصحابُه من الفقهاء والقضاة والمتصوفين. لم يحارب الصليبيين لأنهم نصارى، بل لأنهم أجانب غزاة اعتدوا على بلاد المسلمين. لم يمس النصارى والموسويين من أهل البلاد بسوء، بل اعتبرهم مواطنين لهم حقَ الرعاية. لم يهدم لهم في حياته كنيسة، ولم يؤذ قساً أو راهباً، بينما كان الصليبيون اللاتين إذا دخلوا بلداً قضوا على جميع أهله من المسلمين، كما كانوا يُضيِّقون على النصارى الارثوذكس واليهود.

لم يكفَّ نور الدين شهراً عن الخروج للغزو، كما كان حريصاً على تفقد أحوال جنوده وتأمين الأسلحة والذخائر التي يحتاجون إليها. ولتنظيم المراسلة بينه وبين قواته استخدم الحمام الزاجل، وأنشأ له أبراجاً توزعت في أطراف بلاد الشام.

لقد اعتبر نور الدين فتحه لمصر جهاداً دينياً، ولكي يعطي لعمله الصفة الشرعية أرسل وزيره أسد الدين شيركوه إلى بغداد ليستصدر من الخليفة العباسي فتوى بأن عمله هذا هو جهادٌ ديني. فأجابه الخليفة إلى طلبه، ومنحه إمارة مصر إذا فتحها.

كان صلاح الدين يريد أن يتولى تربية الملك الصالح ورعايته، اعترافاً بفضل أبيه نور الدين. وكانت تلك الرغبة يشاركه فيها أمراءٌ آخرون، لأسبابَ متعددة. إلا أن شمس الدين ابن الداية، وهو أخٌ بالرضاعة لنور الدين، ومقدم العساكر في حلب، كان أسرعَ الجميع. فأرسل أكبر امرائه وهو سعد الدين كَمَشْتكين إلى دمشق ليستدعي الملك الصالح للإقامة عنده في حلب.إلا أن كمشتكين قام بعد ذلك، بالقبض على ابن الداية وإخوته ونصّب نفسه وزيراً للملك الصالح.

وحينما علم صلاح الدين بالأمر سار بفصيل من فرسانه إلى بصرى ومنها إلى دمشق (٥٧٠ هـ) فتلقاه السكان بالترحيب، خدمة له ولجمع كلمة المسلمين. وكان صلاح الدين على حق في عمله هذا، لأن الخلاف كان على أشده بين أمراء بلاد الشام، وهذا ما يعيق فتح القدس، وبالتالي طرد الصليبيين. ولما سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها صده عنها أهلُها. فاضطر لتركها وأسرع لنجدة حمص بسبب هجوم الفرنج عليها. ولما شعر الأعداء بقدومه رجعوا أدراجهم.

استنجد الملك الصالح بن نور الدين بابن عمه، سيف الإسلام غازي صاحب الموصل، لقتال صلاح الدين. فوصل عسكر الموصل وانضم إليه عسكر حلب، لكنهما انهزما بجوار حماة أمام قواته. وبعد ذلك قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح وأزال اسمه عن سك النقود، واستبد بالسلطة.

وفي عام ٥٧٢ هـ هاجم ريجنالد أمير الكرك إحدى قوافل الحجاج المسلمين، وهي في طريقها إلى الحجاز، فاحتجزها وسلب أموالها واعتدى على نسائها ورجالها. ولما بلغ الخبر صلاح الدين طلب منه الافراج عن أفراد القافلة وردّ ما سلب منهم، ولكن ريجنالد لم يستجب للإنذار الموجه إليه. فقام صلاح الدين بإرسال قواته إلى الكرك، لكنه لم يستطع فتح حصنها المنيع إلا بعد عدة محاولات، فاستطاع ريجنالد خلال ذلك الهرب إلى

توالت فتوحات صلاح الدين بعد ذلك فأخضع الإسماعيليين الذين حاولوا اغتياله مرتين، وهزم الفرنج في مدن الساحل، ووصلت قواته إلى آمد وإلى مملكة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم(٥٧٦ هـ) . ونزل قرب طبرية، وشن الغارات على بيسان وجنين (٥٧٨ هـ). ثم أرسل الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤة الحاجب إلى البحر الأحمر فدمر أساطيل الفرنج،

وفك الحصار عن العقبة وعن حصن عيذاب، وهكذا أصبحت الطريق آمنة لحجاج البيت الحرام.

وبنتيجة هذه الحروب أدرك الفرنج أن خطة صلاح الدين هي مواصلة الزحف لفتح القدس. فأخذوا بإعداد جيش مزود بوسائل القتال المتطورة واتجهوا نحو طبرية. وفي يوم السبت الثالث من تموز ١١٨٧م - ربيع الثاني ٥٨٣ هـ نشبت المعركة بين جيش المسلمين وجيش الصليبين في قرية حطين، الواقعة بين عكا وطبرية.ودارت فيها الدوائر على الصليبيين، وظفر صلاح الدين بملوك الفرنج ، وقتل صاحب الشوبك والكرك.

وهكذا بدت أبوابُ بيت المقدس مفتوحةً أمام قوات المسلمين، و التي كانت تضم العرب والأكراد والأتراك. لقد جاؤا جميعاً للدفاع عن العروبة والإسلام، وطرد الغزاة الذين استهدفوا إبادة المسلمين، والاستيلاء على مقدساتهم وطمس حضارتهم.

وبعد أن أتم صلاح الدين العدة لمهاجمة بيت المقدس، اتفق مع قادة جيشه على خوض المعركة وإنهاء الوجود الصليبي بدون سفك دماء، أو تعريض المقدسات للضرر. لذلك أرسل إلى ملكِ القدس رسولاً يطلب منه تسليم المدينة بدون قتال، وعارضاً ما يحتاج إليه رجاله من مال وأرض لتأمين سكنهم ومعاشهم.

وبما أن قوات الصليبيين قد ازدادت عدة وعدداً، فقد رفض قادتُها الاستسلام، وقرروا مواصلة الحرب. وفي صبيحة يوم ٢٦ أيلول ١١٨٧ م أخذت المنجنيقات تدق أسوار القدس، وتقذف كتلاً ملتهبة على مقاتلي الصليبيين داخل الأسوار. كما نشبت معاركُ طاحنة في أطراف المدينة، وكان الظفر فيها للمسلمين. ولما استطاع جنود صلاح الدين نقب الأسوار والنفوذ منها طلب الصليبيون الاستسلام، ووافقوا على تسليم القدس من غير

قتال، والخروج منها مع كل ما يملكون . إلا أن صلاح الدين رفض طلب الفرنج وقال: لن استلم المدينة إلا بحد السيف، لقد أعطيتكم الفرصة للتسليم بدون قتال فرفضتم،. لكنه لما شعر بأن ذلك سيقود إلى مزيد من الضحايا والدماء وافق على رحيل جميع اللاتين من غير العرب، وسمح لهم بحمل الأموال والكنوز التي حصلوا عليها، لقاء فدية تدفع عن كل رجل وامرأة وطفل. أما المسيحيون من أبناء البلاد فقد سمح لهم بالبقاء كمواطنين لهم مثل ما للمسلمين من حقوق.

كان الغدر صفة من صفات الصليبيين، ذلك أنهم بعد أن وقعوا اتفاق تسليم القدس والرحيل عنها، مقابل الحصول على الأمان من صلاح الدين، أخذوا يرسلون الاستغاثة وطلب النجدات من أوربا لمحاربته. وهذا ما أثار بعض أمراء صلاح الدين، فطلبوا منه أن يسمح بهدم الكنيسة التي بناها الصلبييون، حتى ينقطع أملهم بالعودة إلى القدس. لكنه رفض ذلك وفضل الاقتداء بعمر بن الخطاب الذي صلى خارج باب الكنيسة.

لقد استولى صلاح الدين بعد سقوط القدس على جميع الأقاليم التي كانت بيد الفرنج، ولم يبق لهم إلا يافا وصور وطرابلس. فتجمع أهل تلك الأقاليم في مدينة صور وأرسلوا إلى الغرب بطلب النجدة، فوصل من الفرنج عدد كبير عن طريق البحر، وساروا إلى عكا وأحاطوا بسورها من البحر.

وفي عام ٥٨٦ هـ جاءت الأخبار من بلاد الروم أن حملة صليبية ثالثة في طريقها إلى فلسطين، وعلى رأسها ثلاثة ملوك هم: فريدريك بارباروس ملك ألمانيا، وفيليب أوغوست ملك فرنسا، وريشارد قلب الأسد ملك انكلترا، وكان عدد جنودهم مئتين وأربعين ألفاً.

وبعد حرب امتدت بينهم وبين صلاح الدين حتى عام ٥٨٨ هـ ، عرض ملك انكلترا عليه الصلح. فرضي بذلك، بسبب تكاثر جيوش

الصليبيين، والملل الذي أصاب المسلمين من امتداد الحرب، علماً بأنهم لم يخسروا فيها سوى مدينتي عكا وعسقلان. وأخيراً عقدوا بينهم وبين الصليبيين هدنة لمدة ثلاث سنين وثلاثة شهور.

عاد صلاح الدين إلى دمشق بعد ذلك، لأنه كان يحبها ويحب الإقامة فيها. فلقي أهله وأولاده بعد غياب دام أربع سنين. ثم خرج يتصيد مع أخيه الملك العادل، فكان عملُه كأنه وداعاً لأهله ومرابع أنسه ونزهته.

لقد داهم المرضُ صلاح الدين بعد فترة وجيزة، فتوفي في دمشق سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م، ودفن بجوار الجامع الأموي، بعد عمر دام سبعاً وخمسين سنة. وترك من الأولاد سبعة عشر ذكراً وبنتاً صغيرة.

كان الملك الناصر صلاح الدين، على بعد نظره، لم يكتب لأبنائه عهداً يبين فيه حقَ كلٍ واحد منهم بهذا الملك الواسع الذي خلفه لهم. ولما توفي ملك بعده ولده الأكبر الأفضل نور الدين دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس ـ وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها. وكان ولده الملك الظاهر غازي بحلب، فملكها هي والمدن المجاورة لها ومنها حارم واعزاز ومنبج.

أما الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أخو صلاح الدين، فكان يحكم الكرك والشوبك والأقاليم الشرقية. ولكن لم تمض تسع سنوات على وفاة الملك الناصر صلاح الدين حتى استقر ملك مصر والشام لأخيه العادل، الذي تخلص من أبناء أخيه الواحد بعد الآخر. ولا عجب في ذلك، إذ ليس بالحقيقة بين أبناء أخيه من يدانيه بحسن السياسة وبعد النظر وكثرة التجارب والدهاء. لهذا كان أخوه صلاح الدين يحبه ويحترمه ويستشيره في المعضلات. كما كان العادل ينوب عن أخيه صلاح الدين في مصر والشام عند غيابه. وهكذا توزعت خلافة المُلك بين أسرة صلاح الدين و أخيه الملك

العادل وأولاده.

يقول الأستاذ كرد علي في كتابه (خطط الشام):

«بالرغم من أن الصفة التي اشتهر بها صلاح الدين كانت صفةَ العسكري الظافر، إلا أنه كان رجل قيادة ودولة. كان يهتم بشؤون المواطنين من علم ورعاية، حتى أنه وقف بعد فتح القدس مخاطباً جيشه فقال:

لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيوفكم، بل بقلم القاضي الفاضل» ـ كما قال لهم أيضاً: «إننا لم نقم بفتح القدس من أجل ذبح الصليبيين والثأر لفعالهم، وطردهم عن وطننا، بل من أجل أن تبقى الديار منارة علم».

كان القاضي الفاضل، واسمه عبد الرحيم بن علي البيساني، وزيراً ومستشاراً لصلاح الدين، يُشرف على رسائله ويقدم له النصح عند الحاجة ـ وقد أهداه صلاح الدين مكتبة تضم ثلاثين ألف كتاب ، حصل عليها عند فتح مدينة آمد بديار بكر.

كان السلطان صلاح الدين رضي الأخلاق، متواضعاً وصبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن أخطاء وذنوب جنوده وأصحابه. لم يفرّق بمعاملته بين المسيحيين والمسلمين من أبناء البلاد العربية، لأنه تأكد أن فرحة المسيحيين بفتح القدس لم تكن أقل من فرحة المسلمين. لقد اهتم بمدينة القدس بعد فتحها، فقام بتشجيع العلماء والأدباء فيها وأجزل لهم العطاء، فدبت الحياة الفكرية والعلمية فيها. ووصف العماد الأصفهاني، وكان مواكباً لتلك المسيرة، ما تم على يد صلاح الدين فقال:

«فما ترى إلا قارئاً باللسان العربي الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة، ومتفحصاً في مشكلة، ومورداً لحديث نبوي، وذاكراً لحكمٍ مذهبي، وسائلاً عن لفظ لغوي أو معنى نحوي...».

ولما وصل الطبيب والعالم عبد اللطيف البغدادي إلى القدس، وتجول

فيها قال «وجدت مجلساً يتذاكر فيه العلماء في مختلف العلوم، وكان بينهم صلاح الدين، يُحسن الاستماع والمشاركة ..... ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، وكل من جالسه كان لا يشعر أنه مجالس لسلطان بل يعتقد أنه مجالس لأخ من الاخوان».

كان صلاح الدين مسلماً سنياً متسامحاً. هادن الفاطميين الشيعة، بدليل أن العاضد، وهو الخليفة الفاطمي استدعاه وولاه الوزارة بعد مقتل شاور الخائن. وحينما طلب الملك العادل نور الدين منه أن يلغي الخطبة في مصر للخليفة الفاطمي، ويحولها للخليفة العباسي تردد في بادئ الأمر لكنه نفذ ذلك خوفاً من غضب نور الدين. وبالرغم من أن الخليفة الفائز كان شيعياً متطرفاً، لكنه كان شاباً دمث الأخلاق، توفي في حداثة العمر، فحضر صلاح الدين جنازته ووقف في عزائه وحزن عليه حزناً شديداً.

ومن مزايا صلاح الدين محبته للعلم وتقديره للعلماء والأطباء. وكان من المقربين إليه طبيب موسوي من قرطبة، هو أبو عمران موسى بن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤م) ، درس الطب والفلسفة والدين في بلده. ثم رحلت أسرته إلى مصر، خلال حكم الموحدين، بعد أن تظاهر باعتناق الإسلام والقيام بشعائره. وحينما حلّ وأهله في مدينة الفسطاط بمصر أظهر دينه. فالتف حوله اليهود، وارتزق بتجارة الجواهر والأحجار، كما ذاعت شهرته بالطب. فقربه القاضي الفاضل، وعن طريقه دخل في خدمة السلطان صلاح الدين ومن جاء بعده من أسرته.

لقد درس ابن ميمون مؤلفات ابن رشد وغيره من علماء وأطباء الأندلس، ثم قام بتصنيف عدة مؤلفات منها كتابه المشهور باسم دلالة الحائرين guide des égarés. وحاول في هذا الكتاب أن يوفق بين الفلسفة والدين اليهودي، حسب طريقة ابن رشد . فلم ترق آراؤه لبعض المتزمتين من اليهود فأطلقوا على كتابه

اسم ضلالة الحائرين. كما صنف رسالة في المعاد الجسماني، وهذا ما ينكره مقدمو اليهود، فأخفاها إلا عمن يرى رأيه .

ويقول ابن العبري إن ابن ميمون ابتُلي في آخر زمانه برجل فقيه من الأندلس، وصل إلى مصر ورام أذاه لدى السلطان، فقال عنه أنه يهودي قد ارتد عن الإسلام، فمنعه عنه القاضي الفاضل وقال: رجل يُكره لا يصح إسلامه شرعاً.

لقد توالت النوائب والأحداث على سكان مصر وبلاد الشام، منذ وطئت أقدام الصليبيين أرضهم. فالمنازل والمساجد تهدمت بتأثير الزلازل، والأرزاق اختفت من الأسواق، بسبب إهمال الزراعة ونقص اليد العاملة في الحقول، إلى جانب النهب والسلب التي كانت تتعرض له من الداخل والخارج. ونتج عن ذلك الفقر والمجاعة وانتشار الأمراض والأوبئة. لهذا كانت البلاد بحاجة إلى خدمات صحية مجانية، وإلى تشجيع المزارعين لخدمة الأرض، ونشر الأمن والمراقبة على الطرقات والأسواق.

لقد أقام نور الدين زنكي بيمارستانه الكبير في دمشق، كما أنشأ بيمارستاناً آخر في حلب. ولما جاء السلطان صلاح الدين إلى مصر استولى على قصر الخليفة العاضد، وكان فيه قاعةً كبيرة، أنشأها العزيزُ بالله.لقد وصف ابن الظاهر تلك القاعة فقال «إن القرآن مكتوبٌ على حيطانها، ومن خواصها أنه لا يدخلها نملٌ لطلسمٍ موجودٍ فيها». ولما قيل ذلك لصلاح الدين قال: هذا يصلح أن يكون بيمارستاناً. فاستخدم له أطباء وكحالين وجراحين ومشرفاً وخداماً، فوجد به الناسُ رفقاً ونفعاً. وكان هنالك قاعات للرجال وأخرى للنساء. كما أُفرد للمصابين بالأمراض العقلية مقاصير خاصة، عليها شبابيك من الحديد.

لقد تعدد الأطباء الذين اشتهروا زمن السلطان صلاح الدين، وكان

منهم المسلم والمسيحي والموسوي. وكان بعضُهم يرافق السلطان في حملاته، فيقوم على خدمة المرضى والجرحى من الجنود. وكان البعضُ الآخر يعمل في البيمارستانات التي انتشرت في مصر وبلاد الشام، فيقوم على خدمة الفقراء من سكان المدن صباحاً، ويعتني بالجنود وعائلاتهم في قاعات خاصة داخل قلعة المدينة بعد صلاة العصر، ويزور المرضى الأغنياء في منازلهم.

لم تكن مهمةُ البيمارستانات قاصرةً على تقديم الخدمات الصحية للمرضى، بل كانت في الوقت نفسه معاهد علمية يدرس فيها الطلاب ليتخرجوا أطباء أو جراحين أو كحالين. وكانت تضم مكتبات حافلة بالمؤلفات الطبية لتكون مرجعاً للأساتذة والطلاب.

كان أولئك الأطباء ممارسون أكثر منهم علماء مكتشفون . وقد قام لفيف منهم بوضع مختصرات للموسوعات الطبية العربية التي ظهرت خلال القرن الرابع الهجري ، أو شروحاً لأجزاء منها، وخاصة كتاب القانون لابن سينا.

كان الأطباء المسيحيون والموسويون يسيطرون على مهنة الطب في كل من مصر والشام، ولكن لما أنشأت البيمارستانات في هذين القطرين فُسح المجال أما طلاب العلم المسلمين ،فازداد عدد الأطباء، وكان منهم المتعلم ومنهم الجاهل. كما ازداد الطلب على شراء العقاقير والأدوية، فندر وجودها، وارتفعت أثمانها، وكثر غشها عند باعتها وهم العطارون.

كان رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منذ صدر الإسلام، يقومون متطوعين بمراقبة الباعة، والتجوال بين الأزقة والطرقات، ينصحون الناس بالبرّ والتقوى، وينهونهم عن الغش والتدليس، وإيذاء زبائنهم وجيرانهم. وأُطلق على هؤلاء المتطوعين اسم رجال الحسبة .

وفي عام ٢٧٩ هـ / ٩٣١ م شاع في مدينة بغداد خبرُ وفاة أحد المرضى نتيجة خطأ ارتكبه طبيب دجّال. لذلك قام الخليفة المقتدر بالله العباسي بتعيين طبيبه سنان بن ثابت بن قرة رئيساً للحسبة، وأطلق عليه اسم المحتسب. وخوّله فحص الأطباء والصيادلة والجراحين والفصّادين والمجبرين، ومنح الأكفّاء منهم إجازةً بمزاولة مهنته. فتحول نظام الحسبة من اسداء النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى نظام تفتيش ومحاسبة ومراقبة، وبالتالي المعاقبة عند تكرار الذنب.

لقد ظهر بين القرنين الثالث والسادس للهجرة عدة مؤلفات تبحث في نظام الحسبة، ومحنة الأطباء، وأشهرها:

١- كتاب أحكام السوق: ألفه يحيى بن عمر، الأندلسي الأصل والافريقي المولد، سنة (٢٨٦ هـ /٩٠١ م). عالج فيه فرعاً من فروع نظام الحسبة وهو مراقبةُ وضبطُ البيع والشراء في الأسواق، ومراقبةُ الأسعار والأوزان. وهو ما تقوم به وزارة التموين في الوقت الحاضر. حقق هذا الكتاب العالم حسن حسني عبد الوهاب، وقامت الشركة التونسية للتوزيع بطبعه ونشره.

٢- كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي البصري ثم البغدادي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ). بيّن في كتابه الصفات والصلاحيات التي يجب أن يتمتع بها المحتسب، و الفرق بين مَهمته ومهمة القاضي. وأسهب بذكر العقوبات التي تفرض على من يرتكب الغش والتدليس ويخالف أحكام الشريعة.

٣ - وفي زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي اشتهر طبيب في مدينة حلب اسمه عبد الرحمن بن نصر الشيزري. قام بتأليف كتاب عنوانه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة». وربما وضع كتابه هذا بناء على طلب صلاح الدين، لمساعدة الحكومة الأيوبية في مراقبة أرباب الحرف المختلفة، علماً بأنه أهدى لهذا السلطان كتاباً عنوانه «النهج المسلوك في سياسة الملوك». غير أنه لا

يوجد لـدينا ما يثبت أن الشيـزري تولى الحسبة، ولكن حـاجي خليـفة، في كتابه كشف الظنون، يقول عن الشيـزري أنه كان قاضِياً بطبرية، وربما جمع في ذلك الوقت بين القضاء والحسبة.

لقد قـام بتحقـيق مخطـوط هذا الكتاب الدكـتور السيـد الباز العَـريني وقارنه مع مـا يشبهه من المؤلفات التي ظهرت قـبله أو بعده، فوجـد أنه يمتاز عنها بعدة وجوه أهمها: الإسهـاب في شرح الطرق التي كانت تتبع في غش الأدوية والعقـاقيـر، و كشـف أسـرار صناعـات كـثيرة كـانت مـجـهـولة، والاهتـمام بمراقـبة أهـل الذمة الـذين تعـاونوا مع الأعـداء وأرباب الحركـات الباطنية. ويقول مؤلفه أنه اقتصـر فيه على ذكـر الحرف المشهورة دون غيرها، لمسيس الحـاجـة إليـها، وجـعلـه في أربعـين بابـاً. تـكلم فـي البـاب الأول عن الصفـات التي يجب أن يـتحلى بهـا المحتسب وواجـباته. وتكـلم في الأبواب الأخيـرة في الحسبـة على الأطباء والكـحالين والمجبـرين والجرائحيـين ومؤدبي الصبيان.

ومن العلوم التـي مارسها المسلمون بـنجاح، خلال الحروب الصليـبية، فن الحـرب. وكان مـن محـاسن الصـدف إطلاعي عـلى كـتـاب عنوانـه (فن الحرب عند الصليبيين خلال القرن الثاني عشر). قام بترجمـته من الانكليزية إلى الـعربيـة العـميد الركـن الأسـتـاذ مـحـمـد وليـد الجلاد، وأصـدره مركـز الدراسات العسكرية بدمشق عام ١٩٨٢.

لقد توضحـت لي عند قراءة هذا المرجع بعض الخطط العـسكرية التي كان يلجـأ إليها الصليبيون في حـربهم ضد نور الدين زنكـي وصلاح الدين الأيوبي، ومـا كان يقوم بـه هذان البطلان من أعـمال في سـبيل إحبـاط تلك الخطط وربح المعركة.

لقد هاجم الصليبيون بلاد الشام في الحملة الأولى بأعداد ضخمة، فلم تستطـع جيـوش المسلـمين المبـعـثرة الـوقوف فـي وجه تقـدمـهم علـى طول الساحل. فـاستولوا بعـد ذلك على الرها وانطاكـية واللاذقية .. وأخيـراً بيت

المقدس.

وكانت سياستهم الدفاعية تتطلب تمركز الجيش في قواعد مرتفعة وافرة المؤن وسهلة الإمداد. لهذا أقاموا القلاع على تلال وسط حقول زراعية تشقها طرق معبدة. وكان قادة الجيش يقسمونه إلى سرايا، وتنتظم كل سرية على ثلاثة صفوف، بحيث تكون مربعة الشكل. وهي تسير أو تقف متراصّة، محافظةً على النظام والهدوء وضبط النفس، بحيث يتعذر على فرسان المسلمين أو مشاتهم شق صفوفها.

أما الطرق والوسائل التي اتبعها المسلمون لهزيمة الغزاة فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١ً – محاصرة القلاع وإحراق الزرع وتخريب القرى المجاورة لها لمنع وصول المؤن إلى الجنود المحصورين.

٢ً – وضع الأرصاد على رؤوس التلال، للإعلام عن قرب وصول الامدادات للعدو، وبالتالي قطع الطريق عليها وسلبها.

٣ً – مناوشة سرايا العدو بالنبال واتباع طريقة الاجهاد، أي تواتر الهجوم والانسحاب بسرعة.

٤ً – الهجوم على مؤخرة الجيش لنهب مؤنته وتشريد دوابه وسلب عتاده، وإضرام النار في منجنيقاته .

٥ً – انتخاب الأراضي االوعرة للتمركز فيها مما يجعل الأعداء يحجمون عن مهاجمتهم.

٦ً – جر الأعداء للحرب في أرض وعرة أو رملية، حيث لا يحسنون الحرب فيها.

٧ً – الإسراع باتخاذ أمكنة تتوافر فيها الينابيع أو مجاري الأنهار، قبل أن يحتلها العدو، واللجوء إلى الحيلة لإدخال الكتب والأغذية والأموال إلى المدن المحاصرة، وخاصة الساحلية منها.

٨ً – لقد أحسن جنود المسلمين استعمال المنجنيقات عند محاصرتهم القلاع، وذلك برمي الأحجار والكرات الملتهبة لإخراج الأعداء منها. كما استعملوا الكباش، وهي أعمدة خشبية طويلة وغليظة، توضع في رأسها كتلة من الحديد كبيرة الحجم. وهي وتستعمل لدك أبواب الحصون و جدرانها لإيجاد منافذ للدخول إليها واحتلالها. وهنالك علوم أخرى اطلع عليها العرب وطوروها في تلك الحقبة، لا مجال لذكرها لضيق الوقت، والسلام عليكم.

المراجع:

– محمد كرد علي: خطط الشام.

– ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

– أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام.

– عبد الرحمن الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

– االقاضي مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

– معروف عزيز نايف رزوق: تاريخ شيزر.

– أبو شامة المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين.

– عبد الله بن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.

– محمد وليد جلاد: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر.

– د. حسين مؤنس: نور الدين زنكي ـ فجر الحروب الصليبية.

– ابن الأثير (علي بن محمد): الكامل في التاريخ

– كتاب صلاح الدين ، في ذكرى مرور ٨٠٠ عام على فتح القدس ـ طبع عمان ١٩٨٨.